



مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

ترجمات نماء

تأثير الإسلام خلال العصر الوسيط في تأسيس وظهور المصارف اليهودية

لويس ماسينيون

ترجمة: فريد أكوزال

www.namaa-center.com

الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز

تأثير الإسلام خلال العصر الوسيط في تأسيس وظهور المصارف اليهودية

لويس ماسينيون

ترجمة: فريد أكوزال

أثناء دراسةٍ لمحاكمةٍ دينيةٍ أُقيمت في بغداد تحت سلطان المقتدر (٩٠٨-٩٣٢)، كُنْتُ مُتفاجئاً بالدور الذي كان يشغله لدى الخليفة ووزرائه بعضُ الصيارفة اليهود، الذين كان يُجرأ دون تمييز على أن يُجرى على أيديهم جواهر التاج وسُجناء الدولة^١.

وبعد دراسةٍ تشكيل الهيئات الإسلامية والتوسُّع المصاحب لها في نفس الحقبة من تمردات القرمطية^٢، أدركتُ أن المطالبة الحادة من عُتَمال المزارع والمدينة بالمساواة الاجتماعية التامة، كانت مُثارة، أو على الأقل مُعجَّلة بسبب تركيز نُثائي لوسائل العمل: بتركيز لرؤوس-الأموال، بفضل تشكُّل طبقة من الصيارفة التحكيميين (banquiers arbitragistes)، بأغلبية مسيحية بدائية^٣، ثم يهودية، اتَّخذوا من بغداد مركزاً، مع فروعٍ على بُعد، تعملُ على تزويد الدولة بالمعادن النقدية؛ - وبتركيزٍ لليد العاملة، بفضل غزوات العبيد، بالغايات الإستعمارية المدعومة من قِبَل هؤلاء الصيارفة أنفسهم، تحت ذريعة "الحرب المقدسة"^٤، وذلك قصد ضمان استمرار صيرورة أوراش العُمال في المدن وحقول الزراعة.

من جهةٍ أخرى، كُنْتُ قد لاحظتُ من خلال بحوثي حول الطبوغرافية الحرفية لمُدن الإسلام في العصر الوسيط، أنَّ الأهمية الفائقة للصيارفة التحكيميين قد تأكَّدت فيها من خلال أمارتين اثنتين: سوق الصبَاغة، سوق الفضة بما في ذلك النقود (قريباً من العُملة)؛ والقيصرية، صالَّةٌ للأقمشة الأجنبية الثمينة، التي هي في الآن نفسه إيوانُ (Bourse) وكذلك محلات عامة للقيمة-

¹ Passion d'al Hallâj, Paris, 1022, p. 266.

² *Esquisse d'une bibliographie qarmate*, ap. Oriental studies presented to E. G. Browne, Cambridge, 1922, pp. 329-338.

³ Jahiz, *Radd 'ala'l Nasârâ*, ap. "three essays", éd. J. Finkel, Caire 1926, p.17;

حسب الجاحظ، لم يكن اليهودي حينها "إلا صبَاغاً، أو دباغاً، أو حجاماً، أو قصاباً، أو شعاباً". Cf. *Passion ma* ... p. ٢٢٦.

^٤ تمديداً لمصطلح فيء الجهاد، أساس ميزانية المعاشات الأصلية: الذي صار "الميزانية الخاصة".

الثَّماش (valeurs-étouffe) ° (ولا تزال توجد اليوم قيصرات في معظم مدن الإسلام، في غرناطة، في فاس، كما في أصفهان وقرب ماينلا).

وفي حين أن العصر الوسيط الغربي لم يعرف المصارف الكبرى إلا ابتداءً من القرن الرابع عشر وأن العصر القديم حتى البنظي منه يُظهر لنا "صيارفة اليونان القديمة" (Les trapézites)^٦، إمام مسؤولين تابعين، وإما كأشخاص خواصّ بلا سياسة مُشتركة، - صار من المعقول أن نفترض أن نمو المصرف العالمي بصورته الحالية مع رُجحان واضح للعنصر اليهودي يُمكن إرجاعه إلى الخلافة العباسية. وتُمكن سلسلتان من الوثائق -الجاري نشرها- على دراسة السّؤال عن قُرب: نجد بالعربية ذكريات تاريخية صادرة عن كتبة الحكومة حول الحياة داخل بلاط بغداد، في مُقدّمها مُذكرات الجهشيارى (ت. ٣٣١هـ / ٩٤٣م)^٧، التي من الظاهر أنها تُشكّل المصدر الرئيسي لوثائق مُهمة جدًّا صدرت لاحقاً عن مسكويه^٨ و هلال الصابئ^٩، ثم من قُضاة كالتنوخى، صاحب النشوار^{١٠}؛ أمّا بالعربية فنجدُ الإجابات القانونية للجائونيم (Les gaons) والمراسلات المصرفية للعصر الفاطمي التي اكتُشفت في مغاطس شعائر الأمة اليهودية بالقاهرة والتي تمت دراستها أساساً من جاكوب مان^{١١}.

⁵ *Mém. Inst. fr. Archéol. Or. Caire*, t. XXXI, 1912, p. 99; *Revue internat. sociologie*, septembre-octobre 1920, pp. 478-189; cf. *Maroc du XVIe siècle*, Alger 1906, pp. 232-233.

⁶ J. Desvernois, *Banques et banquiers de l'ancienne Egypte*, ap. ٤٨-١ .pp ٢٣ n° ١٩٢٨، Alexandrie .Archéol .Soc Bulletin .(p .٥)

كان يصلح اللباس كمعيارٍ للتجارة الإسلامية، حيثُ كان العنصرُ الوحيد للتبادل المُشترك بين بلدان مُناخات مُختلفة.

^٧ المقطع الوحيد الذي حُفظ من كتابه الوُزراء، وهو المقطع الأول، لا يتجاوز ١٦٦/٥٢٠١ م : éd. Mžik, Vienne, 1926.

⁸ Miskawaih, *Tajârib al umam*, trad. Margoliouth, sous le titre *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, Oxford, 1922, 7 vol.

⁹ Hilâl Sabi, *Kitâb al wuzarâ*, éd. Amedroz, Leyde, 1904.

^{١٠} قد حَقَّق مرجليوث الجزء الأول من النشوار في لندن سنة ١٩٢١

، *Culture Islamic revue la .ap* (وتُرجمته سنة ١٩٣٠ Damas de Arabe académie'l de Revue ضمن الجزء الثامن ضمن Series New Gibb (XXVI)، والجزء الثامن ضمن Series New Gibb (XXVI)، والجزء الثامن ضمن Series New Gibb (XXVI)، Hyderabad ١٩٣٠-١٩٣١ .)

^{١١} Jacob Mann : article sur les "responsa des geonim" mésopotamiens, ap. *Jew. Quart. Rev.*, 1917-1921 ; et ses deux volumes *Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs*.

هذه الوثائق، التي كان فان كرمير^{١٢} ثم ميز^{١٣} السبّاقين إلى توظيف السلسلة العربية منها، و التي تجري حالياً دراستها من مزيك وبيوركمان^{١٤} وفيشيل^{١٥}، قد تمكّنتنا، على ما يبدو لي، من صياغة بعض المبادئ، على أساس تخميناتٍ موجهة بطبيعة الحال، تكون صالحة، على الأقل، لكلّ فترة القرن العاشر الميلادي:

١- إن لقب "جهايزة الحضرة" الممنوح من طرف ديوان الدولة أيام المقتدر لاثنين أو ثلاثة من صيارفة اليهود ببغداد^{١٦} لا يدلّ فقط على كونهم مُرَوِّدين مُقدِّمين، إنّما مُرَوِّدين بتناوبٍ، تارة برضاً تامّ منهم، و تارةً بفدية تُفرض عليهم، كما فعل فيليب لوبيل الرابع باللومبارديين؛ ويلزم من هذا استقراراً في العلاقات مع الدولة وفق نمطٍ جسّدَهُ الوضع الاقتصادي بصراحة على الأقل خلال الفترة ٩١٣-٩٢٩: فطيلة ستة عشر عاماً، كانت المؤسسة المصرفية بن فنحاس وبن عمران و"خلفائه" (I. 12-13, p. 81, loc. cit., Sâbî) تضمّن على سبيل المثال للوزير خلال الأسبوع الأول من كلّ شهر، المألّ اللازم للأداء الفوري لرواتب الموظفين بمالٍ نقدي مُقتطعٍ من جباية الأهواز (التي كانت لديه من قبل) مُقابل التسليم النهائي لغرامة و سداد شهرية من ذهب (التي عادت ضعف الأجر المعلوم). فكان هذا أفضل للدولة، لأداء مُستحقّات القوّات^{١٧}، بدّل الاقتراض من كبار تجار بغداد على السّفنجات، بمُعدّل سنوي يصل إلى ٣٠%^{١٨}؛ أو من تغيير العملة^{١٩}.

¹² . Von Kremer, Über das Einnahmebudget des Abbasiden Reichs vom j. 306 H., Vienne, 1887.

تتوزّع ميزانية سنة ٩١٨م على النحو الآتي : الإيرادات : ١٤,٨٢٩,١٨٨ ديناراً (= مليار فرنك حالياً)، النفقات : ١٦,٩١٩,٠٨٢ ديناراً (= مليار و ٢٢٤ مليون فرنك حالياً). فيما كانت الإيرادات في القرن السابق تصل إلى ٢٤ مليون دينار. سنة ٩٠٨، كان صندوق الاحتياطي يحوي ١٥ مليون دينار.

¹³ Mez, Die Renaissance des Islams, Heidelberg, 1922, 441-483.

¹⁴ W. Björkman , Kapitalansiehung und-anlage im Islam, ap. M. S.O.S., II, 1930, p. 80-98.

¹⁵ Fischel .W ، من الجامعة اليهودية بالقدس، يُعدّ عملاً بخصوص السياسة الضريبية المتبعة من الخلفاء العباسيين.

¹⁶ شريكُ يوسف بن فنحاس و بن عمران : زكريا بن يوحنا (مسيحيٌّ رُثِمًا) لم يدخُل في الشراكة المُلخّصة ههنا.

Cf. Sabî, loc. cit., 158- 159 et 81 , 'Arîb, 74.

¹⁷ كان فيروز شاه (ت. ١٣٨٨) الذهبي يستخدم بوليصات بنكية لسداد أجر قوّاته.

(L. G. Jain, *Indigenous banking in India*, Londres, 1020, p. 10).

¹⁸ دانق ٢/١ = ٤/١ درهم من الدينار، أي ما يُعادل ٢/١ ٢/٠ كلّ شهر.

¹⁹ .٤٤٦، Mez ؛٧٢، *Nishwâr*، Tanûkhî

٢- كان يستقبلُ جهابذة الحضرة من طرف الوزراء (رجاء الاستفادة منها) بعض الودائع، من ضمنها مبلغ الغرامات التي عوقب بها مسؤولون غير نُزهاء من قبل ديوان المصادرات. وباعتبار هذا تجاوزاً، فمن الوارد أن يكون ناتجاً عن عقد شراكة سرّي بين الصيارفة و الوزراء، يضمن لهم نصف أرباح استثمار هذه الأموال، إضافة إلى تهريبها من الحضر القانوني للربا. فكان القسط الأكبر من هذه الأموال التي تُعهد لهؤلاء الصيارفة الرسميين يسدّ عجز "الميزانية الخاصة" للحضرة، دون "الميزانية العامة"، كما تُظهره لنا خطة الميزانية لسنة ١٨٩١.

٣- كان هؤلاء الصيارفة اليهود يشتركون مع الآخرين، مع أفضلية لمن ينتمي للجماعة اليهودية^{٢١}، قصد تشكيل مجموعة من الممولين قادرة على تحمّل مخاطر المضاربة على نطاقٍ واسع، وعلى تنظيم قوافل مُنتظمة بين المدن الكبرى على طول الصحراء و سحلات بحرية، بواسطة مقاذف الخليج الفارسي، لاسترقاق عبيد من إفريقيا أو للحصول على أشياء ثمينة في الهند والصين، إضافة إلى استكشافات برّية بواسطة القوافل الرذنوية^{٢٢}، إما في أعالي آسيا، وإما في السودان الشرقية.

٤- إن النقود السائلة اللازمة لهؤلاء الصيارفة تُجنّى، على ما يبدو، من عمليات موازنة أسعار الصّرف أكثر من تلقّي الضرائب العقارية في المحافظات حيث مُنحت لهم مزارع: وتستند هذه العمليات على الواقع الأساسي من كون الإمبراطورية العربية ذات نظام ثنائي-المعدن (Bimétalliste)^{٢٣}، يعني أنّها لكونها تُعابرُ حركتها النقدية على الدينار، معيار الذهب، والدرهم،

^{٢٠} لأن الميزانية الخاصة، التي كانت تصل زمن المعتضد إلى ٨١٦٥ دينار من النفقة يوميا، أي ما يُعادل ٢,٩٣٧,٦٠٠ (= ٢١٦ مليون فرنك حاليا) في كلّ سنة ضريبية، لم تكن مُؤمّلة إلا من أملاك الدولة (Domaines Les) التي لم تكن وارداتها البالغة ١,٧٦٨,٠٠ دينار سنة ٩١٨ (= ١٢ مليون فرنك حاليا) تكفي إلا لسدّ الجزء ١٨ من نفقات البلاط. فكان الاتفاق السري بين الوزير (وُزّما الحاكم، cf. Sâbî .loc .cit. ، ٨٠، ٩٠.I) و الصيارفة في جباية مُحافظات كتلك (خاضعة للضريبة) مُمكن من احتلاس أموال زائدة بطريقة غير مُباشرة من الميزانية العامة.

^{٢١} Jacob Mann. *Responsa des geonim*, loc. cil.

^{٢٢} Huart, *Histoire des Arabes*, II, 110; Ta-nukhî, *Nishwâr*, 187.

وقد ظلّ Simonsen أن هؤلاء اليهودي الرذنوية "غودانيون" (Rhodaniens) من نهر الغون (Rhôn du vallée la) (*Et .Rev. juives*, ١٩٠٧، ١٤١، Mez، ٤٤٢، n. ٤).

^{٢٣} Cf. mon *Maroc du XVIe siècle*, pp. 99-100.

كان زين الدينار قانونيا من ٤,٤ غ إلى ٤,٧ غ من الذهب، لسند ١٠٠٠/٧٦٨ على الأقل (هذا السند ناتج عن الصرف الإيطالي للدوبل (Doble) المغربي مُقابل ٧٢ صولدي (Soldi) خلال ١٥٢٦-١٥٤٩). أمّا الدرهم فكان زين قانونيا ٣,٤ غ من الفضة، بسند أكثر تعييراً. يُساوي الدينار إذا حوالي ٧٢ فرنك حاليا (= ١٤,٥٠ فرنك ما قبل الحرب).

معيار الفضة، فإنها لم تنجح في الإبقاء على المعدل القانوني الأصلي ١٠/١ المثبت بين هذين المعيارين^{٢٤}؛ ذلك أنه حسب ملاحظة فون كرمير، فإن هذه المقاطعات الغربية، التي هي مقاطعات بيزنطية سابقا، بقيت مُتشبّته بمعيار الذهب، وتمتلك مناجم الذهب، وتؤدي الضرائب بالدينار، بينما بقيت المقاطعات الشرقية، المقاطعات الساسانية سابقا، مُتشبه بمعيار الفضة، ولم تكن تملك إلا مناجم الفضة وتؤدي ضرائبها بالدرهم. فكانت حركة النقد بالتالي تعتمد بالأساس في وظيفتها على مُراسلة صياغة بغداد بنظرائهم في القاهرة (التي كان من المفروض أنها كانت في صلاح الذهب)، وبنزعة موازنة سعر الصرف بين هاذين الموقعين، أي شراء و بيع الفواتير في أحد هذين المكانين تبعاً لتغيرات قيمة الدرهم باعتبار الدينار. وقد كانت القيمة في بداية القرن العاشر دائرة حول ١٤/١ و ٢٠/١. ولا نعرف للأسف لا رقم الإنتاج المتوسط بقطع الذهب أو قطع الفضة في مُختلف معامل الخليفة، ولا تغييرات مُعايرتها، ولا فترات استغلال مناجم الذهب ومناجم الفضة لحساب الحاكم: ولا نستطيع إلا أن نلاحظ تعديل عنوان بعض العملات^{٢٥}، دون الكمية التي صُكّت منها^{٢٦}.

٥- الإزدهار الاقتصادي الاستثنائي للإمبراطورية العربية في هذه الحقبة، أخذ بمؤلاء الصياغة إلى تحسينات جد حديثة. فلتفادي تنقلات النقود السائلة المحرّرة، المكلفة والخطيرة في الآن ذاته، كان يستخدم الصياغة بشكل مُستمرّ الحوالة والسفحة والصكّ التي غالباً ما تُحرّر كـ "شيكات" (chèques)^{٢٧} حقيقية. ويبدو بالمناسبة أن كلمة "شيك" قد أخذها الإنجليز من الهند (الهندو-فارسية تشيك = صك). وفي النصوص التي مجوزتنا الكثير من الروايات التي تشهد على استخدام هذه الأشكال الحديثة من نقل الديون والتعويضات بين التجار.

^{٢٤} انخفض المعدل القانوني ١٠/١ بين الدرهم و الدينار، بسبب الانتاج المكثف لمناجم الفضة وبنفس القدر للإتلاف السريع للنقود السائل، فقد كان ٢٠/١ إلى ٢٢/١ زمن هارون، و ٢٥/١ عهد المتوكل، ثم صعد إلى ١٥/١ و ١٦/١ ليهبط من جديد إلى ٢٠/١ زمن المقدر.

وصَفَ Berchem van Max و Oppenheim von بعضاً من نقود المقدر (*Assyriologie für Beiträge*، ١٩٠٨، pp. ٧٢-٧٨؛ cf. Lavoix، n° 25، ١١٣٠).

^{٢٦} لانعدام أبحاث حول مناجم الذهب والفضة خلال العصر الوسيط الإسلامي موازية لعمل Wiedemann حول ودائع الأحجار الكريمة، لا نقدُ على حلّ بعض الإشكاليات؛ ذكر ميز أن معيار الذهب قد غزا بغداد بين ٨٧٤ و ٩١٥ (ما يجعلنا نعتقدُ حصول تكثيف في استغلال مناجم الذهب) لأن كتابة المالية صارت تُعدّ ضريبة العقار بالدينار؛ لكنها قد تكون مجرد خُدعة تحريرة، إمّا في الحسابات الرسمية أو في صيغة نصّ الحوالة.

^{٢٧} Mez, loc. cit., p.448; Tànûkhî, *Nishwar*, 104-105.

العبارات الحالية هي بوليصة (traite)، كميالة.

Sur le *hundí*, spécial aux rives de l'Océan Indien, cf. L. C. Jain, loc. cit., 70-83, et Wâjîd Alî, *Matla' al 'ulum*, Delhi, 1846, pp. 514-518 : du sanscrit *hundavi*.

بهذا بدى المصرف اليهودي مع نهاية القرن التاسع، ببغداد كمركز، و القاهرة كمركز ثانوي ثم بأصفهان و تستر، إلخ كفروع؛ مُنظّماً بصلافة؛ وبهذا تمّ الاعتراف رسمياً بالجماعة اليهودية ببغداد بفضل استقلاليتها المردوجة؛ مالياً كمنظمة للحركة النقدية، واجتماعياً، بفضل تأسيس رئاسة الجالوت²⁸ (دون الحديث عن الجاؤنية (Gaonat) من وجهة نظر جامعية)²⁹. بيد أن الوضعية الوضعية قد تغيّرت حين تمّت إزالة العباسيين من قبل الفاطميين؛ فتمّ استقدام الصيارفة اليهود إلى البلاط من طرف الفاطمي المعادي-للخليفة، وأدّت الدعاية الشراكية المكثفة من هذا الأخير خارج الحدود إلى ظهور تجمّعات قطاع طرق ومُزوّرين ومروجي خمور (bootleggers) تقوم بأسر القوافر فجعلت من حياة الصيارفة اليهود ببغداد هشة أكثر فأكثر. وعلى ما يبدو، فقد كانت هنالك فرصة لإئتلاف اقتصادي بين الدولتين السنتين، بغداد و إسبانيا، في مواجهة الفاطميين، لأنه بداية من ١٠٥٠ شوهد أن كثيرا من اليهود البغداديين، اقتداءً بأبناء آخر جاؤن: حزقيا، قد نقلوا مركز نشاطهم التجاري و المصرفي، لا إلى القاهرة، و إنما إلى قرطبة. ولم تقم صلافة الإدارة التركية في بغداد إلا بتسريع هذه الهجرة، دون التمكن من الاستفادة منها سياسيا.

انطلاقاً من القرن الثاني عشر، كانت مراكز نشاط المصرف اليهودي، الذي لا يزال لحدّ الساعة مُضمّناً داخل إطار "المدار الإسلامي" (orbis islamicus)، هي مصر و إسبانيا، ولدينا حول هذا الموضوع العديد من الوثائق، خاصة المراسلات. لكنّ الحروب الصليبية، بإفنائها لخراب الخليفة الفاطمي على الساحة السياسية، الذي أهلك بالهجمات المتتابة على جبهة عسقلان-غزة، غيّرت بعمق العلاقات بين مجتمعي اليهودية والإسلام.

كانت هنالك بالفعل مستوطنات يهودية في البلدان المسيحية خارج حدود الإسلام، والتي كانت على تواصلٍ مع الحاخامات خلال جولاتهم الدّعوية والرّزنية بقوافلهم؛ وبالرغم من المعاملة السيئة من الدول المسيحية، فقد دخلت هذه المستوطنات بعلاقة مع المصارفة التحكيمية المصرية و الإسبانية لصرف القطع النقدية، ما صير المصارف اليهودية مشبوهة شيئاً فشيئاً لدى الدول المسلمة. وبداية من القرن الثاني عشر، من الغرب مع الموحّدين، و في مصر مع الأيوبيين، بأنّ أن السّلطة تُشجّع الحقد الشعبي على اليهود. وبدأ بالتوازي الاضطهاد في الدول المسيحية. ما دفع بعض اليهود، إثر قنوطهم من فرض حيادهم، إلى تغيير الديانة نحو كلا الجانبين ضمناً للسلم الضروري لاستمرار عمليّاتهم التجارية. ففي البلاد المسلمة، ذكر بعض الكُتاب التلموديين أن عيد

²⁸ ريش جالوت = رأس الجالوت.

²⁹ Cf. *Lettre du gaon Hai* (+ 1035) à Sahlân de Fustât, publiée par B. Chapira (ap. *Mélanges Israël Lévi*, 1926, p.317).

الأضحى الإسلامي شرعيّ قانونياً^{٣٠}، كما نعلم أن موسى بن ميمون كان يلقن أنه من المسموح لليهودي إعلان إيمانه بالإسلام (وقد فعله هو نفسه في مصر)؛ وداية من هذا الوقت ظهر السؤال المطروح حول المراكز اليهودية-المسلمة في الإسلام، وهي التي لا تزال إلى يومنا هذا، في سمرقند، في مشهد وسالونيك وفي فاس^{٣١}. أمّا في البلاد المسيحية فقد كان الوثوق بصدق اعتناقهم للدائنة الرسمية أصعب ونحن نعلم كيف كان المارانوس أو اليهود-المسيحيون موضع تهمّة وكم ظلّوا كذلك. ومع هذا، وهو ما يهّمنا في هذه الدراسة لتاريخ المصرف اليهودي، فإن أقلية الصيارفة اليهود الذي اعتنقوا المسيحية في إسبانيا، تمكّنوا بسهولة مقارنة بأسلافهم مع فقهاء المسلمين، من الحصول لدى القانونيين النصارى على موافقات شرعية مُجَلِّ تجارة المال (تشبعت المسيحية من القانون الروماني بفكرة الرهن العقاري، وفكرة المزارعة، التي كانت مبعوضة في الفقه الإسلامي)^{٣٢}.

أيضاً، عل الرغم من فشو الكراهية المعادية لليهودية، والتي صارت مُنتظمة في العالم المسيحي، انتهى الأمر بالصيارفة اليهود إلى النظر في إمكانية نقل مركز عملياتهم، الموجودة في البلاد المسلمة لحدّ الساعة، إلى معازل سفارديم بالعالم المسيحي اللاتيني. ونرى من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر، أن الاسترداد المسيحي لإسبانيا ساعد الجماعات اليهودية بطليطلة، ليفورنو، مانتوا، لشبونة، بايون و آفنيون على تصيير مُدنها مراكز أنشطة مصرفية خارج الإسلام. أمّا مركز كغرناطة، الذي ظلّ مُسلماتاً وحيث استقرّ "زعماء اليهود" (neguidim) القادمين من مصر عبر مهدية والقيروان بداية من القرن الحادي عشر^{٣٣}، فقد بدأ يفقد قوّته تدريجياً.

ونعلم بقيّة الأحداث والدور الريادي للعنصر اليهودي السفاردي المهاجر من لشبونة إلى أمستردام، ثم من لندن إلى نيويورك، خلال التوسّع العالمي للبنك الدولي الحديث.

^{٣٠} تمّ تبني هذا من موسى بن ميمون (ت. ١٢٠٤)، وابنه إبراهيم ومن موسى نربوني (Narboni Moise) (ت. ١٣٤٩)؛

cf. Steinschneider, *Polemische und apologetische literatur in arabischer Sprache*, Leipzig, 1877, pp. 354 et 366.

^{٣١} Les *tchelas* de Samarqand, Les *deunmehs* de Salonique (Annuaire du monde musulman, Bulletin d'études orientales, t. I. 3e éd. 1929, pp. 330, 307); les muhâjirûn de Fès (cf. *l'interdit corporatif les frappant ap. mon enquête sur les corporations au Maroc*, 1925, pp. 221-224, et 151-152; et Lévi-Provençal, *Historiens des chorfâ*, 1922, p. 378, pour le pamphlet de Ma'mûn Kettani).

^{٣٢} Cf. Nallino (Congrès de Leyde, 1931).

^{٣٣} Jacob Mann, *Lettre à Pablo Christiani*, publi. ap. *Mélanges Israël Lévi*, 1926, p. 870.

من ثمّ كان من المثير أن نلخص إلى أن الدور المالي للعنصر اليهودي في العالم، الذي يبدو أن آية من سفر التثنية قد لمحت إليه³⁴ والذي يظهر لنا كدورٍ كلاسيكي، ليس إلاً دوراً عرضياً لم يفرض عليه إلاً متأخراً من قبل الدولة المسلمة. إذ لم يسبق أن كانت الغلبة بين الصيرفة خلال العصور القديمة، بل و حتى في العصر البيزنطي، في يد العنصر اليهودي. كما لم يكن الأمر كذلك عند بداية الإسلام؛ ففي بداية القرن التاسع، لم يعتبر الجاحظ اليهود كمتخصصين داخل المصرف، حيث كانت هذه المهنة آنذاك مُزاولةً من قبل المسيحيين³⁵. لكن نعلم أنه لكون القانون الفقهي الإسلامي الذي يمنع المسلمين من تجارة المال³⁶، والذي لا يتسامح في بلاد المسلمين مع أي أمة من الأمم دون اليهود والنصارى، كانت الدولة المسلمة مُجبرةً ضرورةً على أن تمنح احتكار تجارة المال إقاماً للنصارى وإما لليهود؛ غير، أن الماليين النصارى كانوا بالطبع أكثر شبهةً في أعينهم، كجواسيس مُحتملين في خدمة الأباطرة المسيحيين في بيزنطة؛ خلافاً للعنصر اليهودي الذي لم يكن بإمكانه أن يجد نقطة دعم سياسي خارج الحدود ضد الإسلام، الشيء الذي يجعله أكثر أمناً. و من هنا قامت الدولة المسلمة في أواخر القرن التاسع بتعيين العنصر اليهودي مُتخصصاً في تجارة المال، وبهذا وُصم بصفة اجتماعية خاصة لا تزال علماً عليه في العالم المسيحي إلى اليوم؛ نوعٌ مساوٍ نفسياً لـ"حلقة اليهود" (La rouelle)، تلك العلامة الجسدية المميّزة³⁷: رُقعة قماش صفراء كانت تُوجب الدولة المسلمة على كلّ يهودي وضعها على الكتف والتي أخذتها كذلك الدولة المسيحية من الإسلام حينما كانت تنظم اليهود في معازلمهم.

وبمحاكاة أكثر شدة³⁸، قلّد العالم المسيحي على المستوى الإستعماري بعضاً من أشكال الأنشطة الممارسة من الدولة المسلمة، بفضل تعائش هذه الأخيرة مع المالية اليهودية. فقد كان التجنيد الإجباري المسلّح للعبيد الزنوج من أجل مزارع أمريكا أو "الحقّ

³⁴ Deutéronome, XV, 6.

³⁵.supr .cit .loc ,Jahiz

³⁶ وقد أكد ياقوت في مُعجمه استثناءً غريباً، موثقاً من كتاب مجريين- : بين ١٠٨٠ و ١٢٥٠، كان بالقرب من زيمون (= Semlin) قرابة ثلاثين قريةً مُسلمة حنفية، تُدعى "إسماعيلية"، حيث كان يُستقطب مصرفيو-نقود ملوك المجر؛ يُعد Okie .T.M دراسة عنهم.

³⁷ بالعربية "غيار"؛ منصوص عليها في تشريعات ٨٠٧، ٨٤٩ و ٨٥٣؛ بلون أصفر لليهود و أزرق للنصارى.

³⁸ وبالتأكيد، فقد زادت حدة العدا "ضد-اليهود" من الحشود المسيحية عند الاتصال بالإسلام، في فترة الأزمة الاقتصادية (Alger .cf) (١٨٩٩)؛ الأغنية المعادية لليهود التي كان يُرددها بدو السالت في السبت المقدس لليونان الأرثوذكس، تحت قبة القبر المقدس: عيد اليهود عيد القرد، عيدنا عيد المسيح، والمسيح بدمه اشترانا، إحنا اليوم في راحه، وإنو اليوم حزائه (le notée IV ١٣، ١٩١٨) .. يعود هذا النشيد صراحةً لأسطورة إسلامية. ومن الممكن الحصول على أشياء من هذا القبيل حتى في الغرب اللاتيني كأصداء لجدلية المسلمين، من هذه الغيرة الأخوية مُجاه عرق إسماعيل الذي يؤد الانتقام من عرق إسحاق، الذي حاذ به عن "البركة" الأبوية.

في متاجرة السود مُقابل تعويض " (asiento)، المخوّل من قِبَل مارانوس إسبانيا، مُستوحاً من نفسِ مناهج النخاسة في بغداد و القاهرة؛ كما كانت عادةُ التأجير الزراعي لمزارع استعمارية كبيرة (آل فوغر من أغسبورغ بفنزويلا) للمصارف منذ القرن السادس عشر شبيهةً بالإيجارات الممنوحة للسيارة اليهود ببغداد خلال القرن العاشر.

بالرجوع إلى كلّ ما سبق، نستشفّ ظرفاً تاريخياً استثنائياً، يجمعُ بين دولةٍ وماليةٍ على نفسِ الغرض؛ دولة عربية من جهةٍ، بالتالي مُستعيلة عرقياً بفن الزراعة والحرف اليدوية، ومُسلمة، بالتالي تستطيع قانونياً إخضاع كلّ ميزانيتها لعطيّة المقدمين في الاستفادة (بفضل حُمس الفيء والغنيمه)؛ ومالية يهودية من جهةٍ أخرى، بالتالي مُغترِبين، صيارفة ينحدرون من سلالة مبنوذة، مُجتتة من كل أرض أصلية، مُقتصرة على المضاربة في الأملاك كمؤشّرات التبادل النقدي. وحدّه؛ هذا الظرف خلال القرن العاشر في بغداد يُمكنه تفسير - كما نعتدّ - قصّة تأسيس هذا النظام البنكي المثير في العالم من استغلال اقتصادي، وتعبئة ربحية هائجة على نحو مُتزايد - إنجازات فورية، غارات مُكتتفة، مصادرات ملكية و مبيعات إجبارية - ، التي مارسها في كثير من الأحيان التوسع الأوروبي الاستعماري منذ القرن السادس عشر^{٣٩} والذي تسبّب تدريجياً في هذا الكمّ من السخط عليها؛ بينما في المقابل، الإسلام، المحروم من هذا الأسلوب في الاستغلال رُغم أنه مُبتكره، اتخذ الآن، خاصة في افريقيا، صورةً المدافع عن الشعوب المضطهدة من أوروبا.

^{٣٩} الحملة الصليبية قبلها سنة ١٢٠٤ قريبة من هذا الشّكل.